١٢

انتشار الإسلام في أوروبا

obeikandl.com

جزيرة طريف «٩١هـ/ ٧٠٩م» :

تقع طريف عند الرأس الصغير الداخل في البحر جنوب الأندلس، ولازالت طريف تحمل اسمها حتى اليوم، وهي بلد جميل في محافظة قادش، وقد أخذت طريف اسمها من اسم أول قائد عربي ينزل بجيشه المسلم على أرض الأندلس للاستكشاف والاستطلاع، طريف بن زرعة بن أبي مدرك، الذي عبر المضيق عام ٩١هـ/ ٧٠٩م بعد أن حصل موسى بن نصير والي ولاية إفريقية وعاصمتها القيروان على إذن من الخليفة الأموي، الوليد بن عبد الملك، بالسير إلى الأندلس.

وحمل جيش طريف الذي كان يتألف من خمسمائة من الخيالة والرجّالة أربع سفن أمدّ المسلمين بها الكونت جوليان حاكم سبتة. وسبتة مدينة على الساحل الإفريقي تقابل المضيق، ولا زالت إسبانيا تحتلها حتى الوقت الحاضر رغم ارتباطها بالتراب المغربي.

ولم يجد طريف بن زرعة مقاومة تذكر، وعاد بغنائم كثيرة يشجع أمير القيروان على التقدم نحو الأرض الخضراء.

غير أن جزيرة طريف التي شهدت انتصار طريف بن زرعة الذي قدم إليها في القرن الأول الهجري، قُدرَ لها كذلك أن تشهد فصلاً من فصول انحسار الإسلام عن الأندلس؛ فقد شهدت طريف هزيمة قوات بني الأحمر وقوات من بني وطاس حلفاء المرينيين في ٢٤ من ربيع الثاني ٧٤٠هـ/ ٣٠ من سبتمبر ١٣٣٩م، في موقعة تُعدُّ آخر المواقع الإسلامية الكبرى في الأندلس على يد ألفونسو الحادي عشر وحلفائه من الأرغونيين، والتي على إثرها استولى الإسبان على مدينة طريف،

وأعقبوا ذلك بالاستيلاء على جبل طارق، فقطعوا على بني مرين وبقية أهل المغرب الطريق لعون غرناطة وأصبح مصيرها مسألة وقت.

* * *

جليقية :

منطقة جبلية تقع في أقصى الشمال الغربي من شبه جزيرة إيبريا، وتطل على خليج بسكاي شرقاً، وعلى بحر الظلمات المحيط الأطلسي من الغرب.

ويلاحظ أن الفاتحين المسلمين الأوائل لشبه جزيرة إيبريا لم يعيروا اهتماماً كبيراً لإخضاع تلك المنطقة، فكانت مأوًى لجيوش القوط الفارّة أمام الزحف الإسلامي، فقد استصغر موسى بن نصير شأن هذه المنطقة، وكان يأمل بدلاً من ذلك أن يدين له جنوب أوربا، وأن يستمر في زحفه حتى يصل إلى فتح القسطنطينية من جهة الغرب بعد أن عجز حصار المسلمين لها عن فتحها من الشرق.

وكان إهمال منطقة جليقية عاملاً خطيراً من العوامل التي أسهمت في سقوط الأندلس في يد المسيحيين آخر الأمر. فقد كانت جليقية بمثابة حصن يُربَّى فيه المقاتلون من الفرنجة، ثم خرجوا فيما بعد بقوتهم ودهائهم فوسعوا الخلاف بين فرق المسلمين، وظلوّا يزحفون حتى استولوا على الأندلس بعد صراع طويل امتد نحو ثمانية قرون.

ومع ذلك فقد كانت هناك مواقف جريئة لبعض الأمراء في تأديب المعتدين من جليقية، فها هو هشام بن عبد الرحمن الداخل يقود بنفسه معركة ضد مسيحيي جليقية في عام ١٧٩هـ/ ٧٩٥م، ويحرز نصراً مؤزراً في المعركة.

الزلّاقة «٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م»:

الزّلاقة موقع بقلب شبه جزيرة إيبريا يقع إلى الشمال من قرطبة، وإلى الشرق من ماردة قرب بطليوس على نهر الوديانة.

وكان المعتمد بن العباد حاكم إشبيلية قد أحسّ بخطر الزحف المسيحي يقترب منه بعد أن سقطت طليطلة في يد ألفونسو السادس عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، فقرر الاستعانة بحكام الشمال الإفريقي، وكانوا في ذلك الوقت من المرابطين.

وكان أمير المرابطين في ذلك الوقت يوسف بن تاشفين، حيث سارع بالاستجابة لنجدة مسلمي الأندلس، فزحف إلى إسبانيا بجيش جرار، وأوقع بألفونسو وجيشه هزيمة كبيرة في موقعة الزّلاقة عام ٤٧٩هـ.

كان ألفونسو وسط جيش يضم ٥٠,٠٠٠ جندي من جنوده.

وكان من نتائج موقعة الزّلاقة أن استرد المسلمون بلنسية على الساحل الشرقي من شبه الجزيرة، وفكوا حصار سرقسطة في الشمال الشرقي لشبه الجزيرة، وعادت لهم السيادة على الجزيرة الخضراء قرب مضيق جبل طارق.

* * *

شريش أو وادي لكة «٩٢هـ/ ٧١١م»:

تبعث هذه الموقعة ذاكرة أبناء المسلمين اليوم حول الجهاد الذي قام به الأجداد من قادة وأجناد المسلمين منذ ثلاثة عشر قرناً مضت، عندما خرجت جيوش طارق ابن زياد لفتح الأندلس موفداً من قبل القائد الإسلامي العظيم موسى بن نصير، أمير القيراون، بعد أن استأذن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك في دمشق لتسيير الجيش، وقدّم له من الأسباب ما يشجع على القيام بالمهام.

كان أهل الأندلس يقومون بغارات متكررة على الساحل الإفريقي وكانوا يقدمون للروم الذين كانوا يحتلون قرطاجنة - في ولاية إفريقية/ تونس - ويحتلون سواها من مدن الساحل الإفريقي العون المادي والعسكري بأمل كسر شوكة الإسلام، وكانت المعارك تتخذ صبغة دينية حيث كان خصوم الإسلام يحملون الصليب.

أما عند شبه جزيرة إيبريا - إسبانيا والأندلس - فكان الروم قد احتلوا شبه الجزيرة في عام ١٣٣م، وكان تحت حكمهم عدد كبير من اليهود الذين كانوا يتضجرون من حكم الرومان، وفوق ذلك فقد تعرضت شبه الجزيرة لغزوات أجناس عديدة، منهم الوندال في أوائل القرن الخامس الميلادي، والقوط في أوائل القرن السادس. وهؤلاء الأخيرون طردوا الوندال إلى الساحل الإفريقي.

وكان هناك شيء من عدم الرضا وعدم التجانس بين سكان شبه الجزيرة، كما كان هناك نزاع دائم بين الأمراء، هذا إلى جانب وجود خلاف بين الكونت جوليان حاكم سبتة على الجانب الإفريقي من قبل القوط، ولذريق ملك القوط على شبه الجزيرة.

جاءت موافقة الخليفة الوليد، وخرج طارق بن زياد على رأس جيش قوامه ٧٠٠٠ مقاتل، أكثرهم من البربر المسلمين، وعبَر المضيق (مضيق جبل طارق) على سفن أعدّها له الكونت جوليان حاكم سبتة - وكان قد أعد مثلها للقائد المسلم

طريف بن زرعة بن مدرك ـ في حملة استكشافية قبل ذلك بوقت قصير. وعبَر طارق المضيق في رجب من عام٩٢هـ/ يونيو ٧١١م، ونزل في الجبل الذي سُمِّي باسمه، على رأس المضيق الذي يفصل بين بحر الروم (البحر المتوسط) وبحر الظلمات (المحيط الأطلسي)، وقال قولته الشهيرة:

«أيها الناس، أين المفرّ؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر».

وعرف لذريق أو (الأدرينوق) بخبر وصول الجيش المسلم فأعدّ جيشاً كثيفاً قوامه ١٠٠٠٠٠ جندي كانوا من العبيد والمستضعفين، بل كان من بينهم أعداء كثيرون للذريق، وطلب طارق المدد من موسى بن نصير، فأرسل له ٥٠٠٠ جندي، وتقابل الجيشان في شريش أو (وادي لكة)، وهو سهل واسع جرت فيه سلسلة من المعارك بين جيش طارق وبين الجيش القوطي، واستمرت المعارك مدة أسبوع أو أسبوعين تحطمت فيها قوة الجيش القوطي، وتشتت ذلك الجيش، ولم يعثر للذريق على أثر.

واتجه طارق بن زياد بعد المعركة بجيشه نحو طليطلة عاصمة القوط، فدخلها وفتح أمامه الأندلس.

* * *

طليطلة «٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م»:

طليطلة مدينة في قلب شبه جزيرة إيبريا واسمها بالإسبانية توليدو، وتقع طليطلة على نهر تاجه.

وقد كانت طليطلة ولاية إسلامية، وكان عليها سليمان بن عبد الرحمن الداخل منذ عهد أبيه مؤسس الدولة الأموية بالأندلس.

وفي عصر ملوك الطوائف حين تمزقت الدولة الإسلامية بالأندلس إلى إمارات صغيرة كان ألفونسو السادس قد نجح في أن يوحد تحت إمرته إمارات استورياس، وليون (في أقصى شمال شبه الجزيرة)، وقشتالة فيما عرف بمملكة قشتالة وليون التي كانت تضم جليقية أيضاً.

وكان ألفونسو السادس يستولي على الحصون الإسلامية واحداً إثر آخر، وقد وثب ألفونسو على طليطلة عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، فأحدث بذلك فزعاً كبيراً في صفوف المسلمين، ودخلت طليطلة بذلك ضمن مملكة قشتالة وليون.

وكان من نتائج سقوط طليطلة أن تنبه المسلمون إلى أهمية الاستنجاد بالمرابطين في المغرب لإنقاذ إسبانيا من الزحف المسيحي.

* * *

العقاب «٦٠٩/١٢١٢م»:

كان ألفونسو الثاني ملك قشتالة منذ هزيمته في موقعة الإرك عام ٥٩١هـ/ ١١٩٥م قد ملكه الخوف، فاستعان بالبابوية، وأخذ يتأهب للأخذ بثأره، وتمكن من ذلك فجمع حشوداً عظيمة، وسار للقاء الموحدين.

وجمع محمد الناصر الموحدي أقصى ما استطاع جمعه من الجنود والعُدَّة، وسار للقاء ألفونسو. وكان في جيش الموحدين مَن لم يتعودوا الحربَ الضارية بين المسلمين والنصارى في الأندلس.

وكان اللقاء في العقاب وهي موضع إلى الجنوب الشرقي من قسطلونة، هزم فيه الموحدون وَحُصِدَتْ فيه زهرة مقاتلي مصمودة وأحلافهم من العرب الهلالية وبني مرين في ١٥ من صفر ٦٠٩هـ/ ١٧ من يوليو ١٢١٢م.

وتُعدّ هذه المعركة من المعارك الفاصلة في تاريخ الأندلس، فقد انحسرت بعدها حدوده إلى حوض نهر الوادي الكبير.

* * *

غرناطة «٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م»:

تقع غرناطة في جنوبي شبه جزيرة إيبريا إلى الشمال الشرقي من ملقا، وتعرف غرناطة في اللغة الأسبانية باسم جرانادا.

قامت في غرناطة دولة مسلمة عمّرت ثلاثة قرون ٢٦٨ سنة على وجه التحديد، في وقت كانت القواعد الإسلامية الكبرى في الأندلس قد تهاوت ولم يبق للمسلمين فيها غير مملكة غرناطة.

نجح محمد بن يوسف بن أحمد بن نصر مؤسس دولة بني الأحمر في تجميع بقايا المسلمين بالأندلس، وتحصن في غرناطة على الطرف الغربي لجبال الثلج في آخر رمضان عام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م، في وقت اشتد فيه ضغط الحملات المسيحية على المسلمين، وهوت فيه كثير من الممالك الإسلامية بالأندلس.

وكان محمد بن نصر بن الأحمر ذكيا نشيطاً عرف كيف يؤسس دولته شيئاً فشيئاً، وقد هاجر في عهده عدد كبير من الصناع إلى غرناطة فأصبحت مدينة كبيرة عامرة.

وكان محمد بن نصر على صلة طيبة بملك قشتالة، واستطاع أن يضم إلى مملكته أرض الجزيرة الخضراء وجبل طارق.

وابتُليت دولة بني الأحمر في آخر عهدها بالخلافات المتصلة على العرش والسلطان بين أفراد الأسرة ومنافسيهم، رغم مساندة دولة بني مرين المغربية لها للحفاظ على غرناطة.

وخلف ملوك بني نصر آثاراً تُعدّ من أعظم معالم الفن في إسبانيا، بل في أوربا، ومنها قصر الحمراء.

وأخيراً سقطت غرناطة في أيدي مملكة قشتالة و ليون عام ٨٩٧هـ/ ١٤٩١م.

وأخلّ ملوك إسبانيا بالمعاهدة التي وقعها فرناندو و إيزابيلا والتي كانت تنصّ على أن تكون لمن يبقى من المسلمين حريتهم الدينية وأملاكهم، لكن الاضطهاد المرير بدأ بعد سنوات قليلة، وبلغ الأمر حدّ حرق المسلمين ومصادرة أموالهم. واستولى فيليب الثالث ١٠١٨-١٠٢٣هـ/ ١٦٠٩-١٦١٤م على أموال من يُقَدَّرون بخمسة ملايين مسلم، وطردهم بصورة غير إنسانية من إسبانيا، بمهلة لم تزد على ثلاثة أيام، وكثيرٌ منهم لم يصلوا إلى الشاطئ الآخر وابتلعهم اليمُّ.

وهكذا اختفى الوجود الإسلامي من إسبانيا في مطلع القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي.